

مايا كوفسكي . صوت الإنسان بقلم جليل كلاك الدين

« الى الاخ الشاعر عبدالوهاب البياتي »

وحتى وان جرت امواجهم على نهر واحد . ولذلك كان بلوك رمزيا ،
ولكنه كان نوريا وواقعا . وللقارئ نسوق مقطعا من قصيدته
« صوت من الجوفة » .

« كم نبكي انا وانتم

على طرق حياتنا التي تشبه الرثاء

ولكن ياصدقائي ليتنا نعرف

برد الايام القادمة وقتامها »

هنا نجد اشارات عموم الرمزيين في العصر الانتقادي او ما يسمونه
« الواقعية السلبية » . ولكنه هو نفسه يقول ، وفي ذات القصيدة ،
فيما بعد :

« استمتعوا بحياتكم وطرفكم

وان كانت اركد من الماء واقصر من العشب

اواه لو نعلم ما سيحدث

من برد وقتامة في مقلب الايام »

انها ليست ابيفورية ، وليست مادية وضيمة . انها مادية
تميز الواقعية الروسية ، وانها ملحم من ملامح انسانيته وحيويتها .
ولذلك ابتداء بسنين ، وهو شاعر روسي كبير آخر تصويريا وانتهى
واقعا ونوريا ، على احتفاظه بطريقة الخاص . ومثل هذا يصح ايضا
على ما ياكوفسكي الذي ابتداء مستقبليا وحاول - مع احتفاظه بخير ما
في هذه المستقبلية - ان يلتحم مع الثورة والمجتمع الجديد ، وكان
له ما أراد ، في الكثير كما وكيفا .

وينبغي ان نسارع فنقول ان ايلوار واراغون في فرنسا كانا
سرياليين ولكنهما انحازا الى الواقعية الاشتراكية ، وهما من مؤسسيها
في الغرب . فالاسلوب الفني ، اذن ، لا ينبغي ان يكون عقبة في وجه
تمثل الشاعر للحياة والالتحام بها ، وهو ابنها الجميل والثوري .
ولا ينبغي ان يطرح الامر على هذا النحو الميكانيكي . فالواقعية
الاشتراكية في البلدان الرأسمالية وفي اوروبا ، وفي سائر بلدان
العالم الان ، تفيد من انجازات كافة المدارس الفنية ، ولا تتقيد بالاسلوب
واحد ولا تفرض ذلك ، اعني انها تتميز بالفني في الاساليب الفردية ،
والتنوع والخصب ، باعتبارها مدرسة تضم الذين يستلهمون روح هذا
العصر الفني ، والجبار والمفقد بحضارته ، وانجازاته ، وتكتيكه . تقول
الكاتبة السوفييتية تامارا موتيلفا (في مقالها « التطور الثوري في الادب
والفن » المنشور في مجلة « الادب السوفييتي » بالانجليزية ، يناير
1966) ما يلي :

« ان اسلوب الواقعية الاشتراكية الذي يتطلب معرفة تامة
بالانسان في علاقته بالمجتمع ، تمكن الاديب من تقصي ونفسير دوافع
السلوك والتطور البشريين . ان الواقعية الاشتراكية تميل الى تصوير
الانسان في تطوره ، والى دراسة اضطراباته الروحية المتشعبة ،
وشديدة التعقيد غالبا ، في علاقتها بالنمو الايديولوجي للناس
واسهامهم في الحركات الاجتماعية . فان شعراء واقعيين اشتراكيين
كيوهان بيجز ، وناظم حكمت ، وبابلويرودا ، ورواينين امثال :
اراجون وبوبونوفا وسيكرز ، وكتابا مسرحيين كبرخت وكروتنكوفسكي ،
قد اغنوا فن الادب ببعض الشواهد الغذة على تصوير الشخصية
البشرية بأساليب فنية عصرية على درجة كبيرة من الكمال . وفي
سبيل ان ترقى الواقعية الاشتراكية الى مستوى المهام الايديولوجية التي

تبتدىء قصة ماياكوفسكي مع الانسان منذ البداية . فهو فسي
الخامسة عشرة من سنه ثوري ، ينتمي الى حزب الثوريين . ومعنى
هذا انه اختار منذ فتوته ، طريقه ، كما معناه ، من ناحية اخرى ، انه
وجد نفسه . لم يكن ماياكوفسكي مراهقا ، او رومانسيا حالما ، لكي
نعتبر انتماءه الثوري ، آنذاك ، نزوة من نزوات المراهقة . فالطريق
الذي اختاره ظل فيه ولم يغيره حتى افول حياته البدنية ، منتحرا .
واكثر من ذلك هو مشدود الى عصره ، بشكل لا يدعنا نعتبر حتى ولو
من قبيل الافتراض الجدلي ان احدا قد غرر به او أوحى اليه ان يسلك
ذلك السلوك . لقد اختار طريقه منذ البداية . لقد كان نوريا .

ولكنه كان مجددا ايضا . وهذا هو الوجه الاخر للقضية . فان
تكون نوريا ، لا يعني ان تكون اعمى ، او ان تفقد البصيرة والتبصر ،
كما لا يعني من ناحية اخرى ، ان تفقد اوتضيق - حتى ولو لمسدى
معين - شخصيتك المميزة . لقد طالب ماياكوفسكي بالتجديد ، وكان
نفسه هو مجددا . ولم يكن التجديد - كما لم تكن الثورة عنده -
حدثا عابرا ، او هوسا صيانيا .

كلا ، فالمسألة تحدد نفسها على هذا النحو : كان ماياكوفسكي
نوريا لانه كان مجددا ، وكان مجددا لانه كان نوريا . ومرة اخرى
لا يطرح الموضوع هنا على نحو ميكانيكي ، وبحتمية عمياء ، وانما بشكل
عضوي ، بشكل الوحدة الكاملة لشخصية ماياكوفسكي . لقد كان
التجديد في ميداني الادب والفن ، عن ماياكوفسكي هو الطريق الى
الثورة في كل شيء ، وبكلمة اخرى ، الثورة التي تصنع الجديد ،
وتفرض التجديد في كل شيء . كما كانت الثورة من ناحية اخرى ،
تعني بالنسبة اليه الطريق الذي لا مناص منه من اجل الاجهاز على القديم
ومن اجل ان يكون لكلمة « مجتمع جديد » و« انسان جديد » مدلولها
الحي ، والعضوي والحسي الواقعي .

فما علاقة ذلك بالانسان ، وبصوت الانسان ؟

ثم الا يتناقض هذا مع مستقبلية ماياكوفسكي ؟

الا يوجد تناقض داخلي ، او ما يسميه البعض ، تمزقا ، في
ذات ماياكوفسكي ؟

٢

ان مستقبلية ماياكوفسكي هي طريقه الجديد نحو الثورة الادبية
وقد كانت هذه المستقبلية عنده مطواعة مرنة ، او لنقل حية تحمل
من ذات ماياكوفسكي خصائصها المميزة الدالة ، بحيث عاشت ثورة
ماياكوفسكي وكانت وسيلة لا للثورة الادبية فحسب ، بل للثورة بمعناها
العالم ، والحياتي ايضا .

لقد اشتهر الشاعر الروسي بلوك بانه رمزي ، او متأثر
بالرمزية ، لكنه من ناحية اخرى ما كان انحطاطيا بالمعنى المتداول عند
النقاد الادبيين . ان الخصائص المحلية ، والواقعية الروسية وتفاعل
روسيا مع الثقافة العالمية اوروبية وشرقية ، كل هذا يجعل لروسيا
ومفكرها وفنائها وادبائها شخصياتهم المحددة ، التي تميزهم تميزا
واضحا عن الاخرين في اوروبا وغير اوروبا ، حتى وان نفيوا ظلال
شجرة واحدة ، او اتموا الى تيار ادبي واحد ومدرسة واحدة ،

تواجهها ، يتعين عليها ان تواصل النفاذ ، بشجاعة ، الى اعماق الحياة العقلية والروحية للأفراد والامم .

ولا شك ان الكتاب التقدميين في يومنا هذا يفتقدون السير في مسالك هذه الاكتشافات ، حتى ان استدعى ذلك الى تحطيم الاشكال الادبية التقليدية » .

واذن ، فان الواقعية الاشتراكية في جوهرها ليست محافظة ، كما يتهمها النقاد الغربيون . وهي مفهومة بجوهرها الصحيح ، تفيد من كافة الوسائل والمدارس والانجازات ، لا على مستوى الجمع الميكانيكي ، وانما على صعيد من التفاعل العضوي ، والانطلاق من الداخل ، والتفكير بقوانين الموضوع ، واللون الادبي ، والاثر الفني المكتوب ومرة قال ناظم حكمت انه لا يتفكير في انتاجه بشكل ما ، فهو يقفي ويكتب الشعر الحر ، ويستعمل البناء الاسطوري ، ويفيد من الفولكلور ، وكل العول عنده وعند كل فنان واقعي اشتراكي حقيقي هو الواقعية في طريقة تناول ، وهي ، بشكل عام ، تصوير الواقع في تطوره الشوري .

ان التجديد في الشكل ، وبزوغ امثال المستقبلية ، والسريالية ، والتصويرية رساها ليس الا من طبيعة متلزمات المضمون الجديد ، فالشكل يتبع المضمون لا على نحو ميكانيكي ، بل بشكل عضوي . ولذلك تجري اعادة نظر واسعة ضخمة اليوم في الاحكام الادبية الماضية ، ويعاد الاعتبار لكثير من الفنانين الذين نظر اليهم بعض النقاد نظرة متمحولة احادية الجانب فراوا الغابة ولم يلاحظوا اشجارها .

كانت المستقبلية عند ماياكوفسكي ايمانا بالعصر وروحه ، ودعوة الى الجديد والثورة ، والمجتمع الانساني الجديد . ولذلك افتقرت مستقبلية ماياكوفسكي ، بشكل ملحوظ ، عن مستقبلية ماديتي في ايطاليا . فقد كان هذا الاخير يفهم المستقبلية على انها تصوير لظواهر العصر كآله والآلية والسرعة والضجيج ، ولما لم يدغم الواقع رؤياه ، نفص يديه من الشعر والف كتابا في « فن الطبخ » . ان ماياكوفسكي فهم المستقبلية باعتبارها دعوة الى المستقبل من خلال المعاصرة . ومع ان المستقبلين كانوا مخطئين في اهمالهم تراث الماضي وتقاليد الثورة الواقعية ، الا انهم بعد الثورة ، وخصوصا منهم ماياكوفسكي اتجهوا بالمستقبلية اتجاها ثوريا واقعيا فكانوا في جانب الانسان بكافة المعاني والمجالات .

كان بيان المستقبلين عام ١٩١٢ ، الذي وقعته الشعراء بوريوك وكروتشنيخ وكليبنوف وماياكوفسكي ينص ، في جملة ما ينص ، على نبذ الماضي ، فالماضي خائق . وكانوا يقولون « نحن وحدنا نمثل وجه عصرنا » .

بل اندفع البيان الى حد القول « من سفينة عصرنا اقدفوا بوشكين ودستوفسكي وتولستوي الخ في عرض البحر » . وواضح ان هذا يصطدم ويتناقض مع النزعة الثورية والانسانية عند ماياكوفسكي . لكن هذا بالضبط كان هو البداية . وفي البداية تكون الهرجلة ، وكون الفوضى ، والتضحيات . انما العول على الطريقة والخاتمة . ان ماياكوفسكي لم يتنكر لجوركي بل كان صديقه ، ولم يحتكر لنفسه تمثيل وجه العصر ، بل كان مع جوركي وكتاب روسيا بعد الثورة يمثلون العصر والثورة في جانبها الروحي والسيكولوجي والفني . . لقد آزاد ماياكوفسكي الجديد والتجديد دفعة واحدة ، وكان يبدو له ان الماضي يخيفه ، ولذلك شاء التحرر منه ، وفي هذا جوهر تصور المستقبلية آنذاك . فالحاضر والمستقبل عند الانسانية ، امور تترابط بشكل عضوي وحي ، وتتفاعل ابدا ، ولا يمكن تخطي الماضي او الحاضر او نسيان المستقبل في نظرة كلية الجوانب ، شاملة كونية . ومع ذلك فحتى في ذلك البيان ، كان جوهر التجديد الادبي واضحا ، بالرغم من تراب الضجيج ، والصراخ الذي يتطلب مجددا في بيئة تعودت احترام وتقديس الطقوس . كان البيان يقول متابعا :

(نحن نطالب بحق الشاعر فيما يلي :

١ - ان يزيد محصول لفته بالفاظ مشتقة والفاظ من اختراعه ، اي ان يستعمل مستحدث الالفاظ .

٢ - ان يمتد اللغة المستعملة حتى الان مقنا لا يداخله تردد .

٣ - ان ينزع في استنباش تلك الاكاييل المصنوعة من فرش الانسان ومن رؤوس المشهورين . .

وكان هذا الحق في التجديد - على علاه - حقا طبيعيا ، وتعتبر المطالبة به ، ايامذاك ، شيئا من قبيل الثورة الادبية . والحق ان روسيا آنذاك كانت تتمخض بالثورة في كل شيء . ومع ان ثورة ١٩٠٥ قد فشلت فانها كانت تمرينا ثوريا ممتازا لثورة ١٩١٧ الاشتراكية . لقد كانت الثورة شيئا من المستقبل ، ولكنه يمر من خلال الحاضر . فالعاصرة التي طالب بها ماياكوفسكي وزملاؤه كانت ثورية منذ بدايتها دون ان يعني هذا غض النظر عن غموض بعض وسائلها ، وعن هرجلتها في هذا اللون الادبي او ذلك ، وفي هذا الاثر الفني او ذلك .

يقول الكاتبان السوفيتيان « اي باجينوف ، وب . شرانين ، في مقال لهما عن ماياكوفسكي : « ان التاريخ يجري خلافا لما ترويه الكتب المدرسية احيانا . فالمستقبلية لم تكن عندما ياكوفسكي شيئا سطحي او مستعارا . وانما كانت دعوة الى هدم الحدود البالية للفن البرجوازي المنحط ، وشعارا يدعو الى تشييد فن المستقبل » وفي فقرة اخرى نسجم منهما مثل هذا القول :

(وقد شادت حنكة التاريخ ان يشق ماياكوفسكي الشاعر المستقبلي ، الطريق لماياكوفسكي الشاعر الذي كان مزما ان يصيح الممثل الحقيفي للتقاليد الكلاسيكية ، ان ثورة ، في جوهرها ، لم تكن الا وسيلة طبيعية تماما في ذلك العصر لتجديد هذه التقاليد .

ولعل اراجون وهو المتحول من السريالية الى الواقعية الاشتراكية ، احد خير من يفهمون روح ماياكوفسكي ، وتحول ماياكوفسكي الشوري ، وجوهر مستقبلية ماياكوفسكي في سابق ولاحق . يقول اراجون : مهما يكن في هذا من ازعاج لعلم الايثونات ، فان ماياكوفسكي لم يكن مستقبليا ، بل كان مؤسس المستقبلية الروسية . . ماياكوفسكي . . يعارض الادب الذي يعكس روح الطبقات السائدة ، ولكنه لا يجد بعد في ميدان الفن ، كما يعبر عن هذه المعارضة ، سوى الافراط المنطقي ، الهدم ، افراط التطور الشعري السابق . وفي هذا الميدان ، وكما فعل فيما بعد ايلوار في تشابكه مع الكلمات التي كانت محظورة عليه لاسباب سرية . فان ماياكوفسكي يصنع سلاحه بلا شك ، يصنع لهجته ، الا انه كان ما يزال ينقصه الوضوح الديالكتيكي الضروري لاستعماله القبل » .

اذن حدد ماياكوفسكي شخصيته الفنية الثورية ، من خلال المستقبلية ، فاهما اياها ، لا كدعوة للمباشرة ، بل للعيش الثوري الحقيفي لروح العصر ، ولا على نحو ميكانيكي ، وانما بنسق عضوي ، وبشكل لا يدير ظهرا للانسان والحياة وكافة مطالبها .

فلماذا كان ماياكوفسكي على هذا النحو بالضبط ؟

انه كان كذلك بسبب من ايمانه بالشعب ، والانسان ، والحياة . وكان كذلك لانه كان ثوريا حقيقيا لا ثوريا محترفا . فحتى قبل ثورة اكتوبر ، وحين مضى المستقبليون في رحلة طافوا بها المدن الروسية (١٩١٢ - ١٩١٤) - وكان ماياكوفسكي معهم - ، حتى في ذلك الوقت كان الشاعر يلتجئ الى الميادين الحي الذي لا ينضب ، مهيمن الشعب . فكان يفيد من الفولكلور الروسي الشعبي الفني ، يقتبس من الحكايات اليومية ولغة الحديث العادي ، ويظم الشعر بالاغاني الشعبية ، فهو لم يخترع لغة جديدة تماما - دون ان يفقد علاقته واسباسه الماضية الكامنة في ادب الديمقراطيين الثوريين كتركاسوف وجير نيشيفسكي ، وفي ادب الواقعيين الكبار كجوجول وشيدرين ، الذين كانوا يؤمنون بالتفاعل الخلاق مع لغة الشعب ليس على صعيد المضمون ، وانما على صعيد تكتيكي .

وكان للحرب العالمية الاولى ان توقظ في الشاعر صوتة الانساني العميق فتأدى بالاخوة ، حلا مثاليا لمشاكل الانسان ، ولا بد لهذه الاخوة

من أخوية كبيرة عميقة يكون الشعراء رسلها :

« .. الى الشوارع يا مؤمنين بالمستقبل

يا فارعي الطبول ويا أيها الشعراء » .

وحين شبت ثورة اوكتوبر كان الشاعر أحد جنودها الطليعيين ولم يكن انضمامه الى صف الثورة محض موضة ، أو نطف ، وإنما كان نتيجة منطقية لتطور الشاعر ، وسائر فصول دعوته التجديدية ، كما كان تكلمة لنضالاته التي كان من إحدى نتائجها أن حبس أحد عشر شهرا ، وأن قبض عليه مرارا ، فقد كان ثوريا قديما .

— ٣ —

أما الذي يهمنا هنا هو كيف عكس ماياكوفسكي صوت الانسان الضخم العريض . وهذا الموضوع الذي قدمنا له بمقدمة فهمنا منها - أو هكذا ينبغي - جوهر مستقبلية ماياكوفسكي لا تنفصل عن مستقبلية بل ان المستقبلية عنده ستستمر حتى بعد الثورة . لقد كان يريد ان يكون شاعرا مثنبا - لا واصفا ، شاعرا طليعيًا - يسبق الزمن ولا يتخرج وراءه . يقول الشاعر ، معبرا عن تواضعه ، وتقديسه فن الشعر مرتبطا ومتصادا مع الحياة ومع الانسان والثورة :

« أنا لا أملك فلسا »

لقد جعلتني أشعاري صغر اليدين

هي لم تؤثت لي مسكنا

من خشب الأيوس

وما خلا فيميصا دائم الجدة والنظافة

أقول باختلاص :

لست في حاجة الى شيء » .

ولعل في هذا بعض سر مأساة ماياكوفسكي . فقد كان سابقا لعصره ، وقد كان ، وهو في فترة عبادة الفرد ، يقاسي الكثير من العنت ، بل يسمع التشنيعات والافتراءات تصدمه . وكان ثمة الكثير من الإحاسدين والناقدين كانت الثورة في سنيها الأولى ، وكان رصيد الصعوبات والمصاعب والمتاعب ضخما ، وكان لا بد لثوري حقيقي ، وشاعر ثوري ، كماياكوفسكي ، ان يتحمل الكثير . وكان ثمة اناس بلا ضمير ، ورغم قلة عددهم ، أه أنهم كانوا يجرحون الشاعر وينالون من سمعته . وحين كتب سرجي بيسنين ، بدمه ، ساعة انتحاره ، في لينينغراد في ١٩٢٥ ، يقول :

« في هذه الحياة ليس جديداً ان يموت الانسان

ولكن بالتأكيد ليس أكثر جدة من أن يحيا » .

كان ماياكوفسكي على موعد معه - وقد أنهى ماياكوفسكي فيما بعد حياته على ذات النحو - ، حين كتب قصيدة الى بيسنين ، يقول فيها :

« في هذه الحياة ليس صدمًا ان يموت الانسان

ولكن صنع الحياة أصعب بكثير » .

وكان ماياكوفسكي مدعوا لا الى بناء حياته الذاتية والاستمرار فيها على صعيد عضوي ، وفكري ، وادبي بل الى المشاركة في بناء حياة المجتمع السوفييتي الجديد ، الذي تألبت عليه كل قوى الشر في شرق وغرب ، فكانت قوى التدخل تمتد من تشرشل والقوزاق المفرد بهم حتى اليابانيين ثم كانت مصاعب البناء الاشتراكي ، وهي مصاعب تهد حيل أكثر العاطفيين والضعفاء . لكن ماياكوفسكي لم يكن رقيق سفر ، بل كان ثوريا حقيقيا ، كان في جانب الانسان بكليته .

فكان ماياكوفسكي يحارب مخلفات الماضي ورواسب الايديولوجية المعادية ، الشعرية ، وهي جبهة التجديد في المحتوى والشكل ، وكان يحارب القبح اني تمثّل وباني شكل تشكل ، وكان يحارب العقائديين الجامدين والبيروقراطية والتقيس وعبادة الشخصية ، وكان يحارب الضعف والانزلال والخور امام المصاعب ، وكان يحارب نفسه هي ذاتها التي كانت تسمعه نداءات الانتحار . وباختصار ، كان يحارب اعداء الانسان في ذاته ، وفي مجتمعه ، وفي وطنه ، وفي العالم بأسره . وتلك مهمة ضخمة حقا ، لم يكن ليستطيع ماياكوفسكي الاستمرار في ادائها زمنا طويلا . فكان انتحاره ، ولكن بعد ان خلف صفحات

مخيدة من الشعر الانساني الواقعي الغصب الذي تتمجد به البشرية جميعا .

كان ماياكوفسكي منذ البداية يحارب القبح والدناءة والتفاهة فكان عدوا لامثال سيفريانين ، الذي انتخبوه ملكا على الشعراء عام ١٩١٤ فقال ماياكوفسكي ، مصوتا صوت الانسان ضد اللاانسانية :

« في أيامنا هذه ، ينبغي

للمرء أن يرفع عصاه

ويهوي بها على جمجمة العالم »

وفي قصيدته « من هذا » كان يقول ، مصورا عذاباته ومعاناته :

« لقد حرمت أربع مرات

واستعدت شبابي أربع مرات

قبل أن أشرف على القبر »

لقد كان الشاعر يحيا بعمق ، ولكنه كان يدفع ضريبة الحياة من اعصابه ، ودمه وعمره . فلم يكن ذلك سهلا . وكان صعبا بصفة خاصة في العهد الثوري حين كان « لصوص الادب » كما كان يسميهم ماياكوفسكي ، والذين هبوا من كل مكان ، يحاربون الادباء الثوريين الحقيقيين بكافة الوسائل ، حتى بالفريات والتشنيعات الدنيئة ، التي ما كانت تتورع بالولوغ بالعرض ، والقذف الشخصي . وكان ذلك مؤلما لان هؤلاء كانوا يتزبون بزّي ثوريين ، وزّي بروليتاريين ، وهم بعيدون عن ذلك تماما .

كان الشاعر يطالب بمزيد من الدم ، ومزيد من العزم ليكافح كل هذا . وكان يلح على ان مهمة الشاعر الثوري ليست سهلة ، بل هي صعبة ، لانها تقتضيه ، هو نفسه ، ان يكون ثوريا حقيقيا ، وان يمتلئ قلبه بالدم ، وما كان ذلك سهلا . لقد كان يقول :

« ضع في قلبي دما

ملء عروقي »

وكان يحب الارض التي عاش فيها ، كان لوطنه بكله ، وكل وجوده :

« أحب هذه الارض .

يمكن ان ينسى الانسان

أين ومتى

امتلا بطنه

واكتنز لحم ذقنه

ولكن الارض

التي عرف الانسان فيها

معنى الجوع

لا يمكن

ان تنسى ابدا » .

كان مع الانسان ، مع الارض التي عرف فيها جوع الانسان . ولم يكن يذاق . فقد كان هو نفسه قد عاش ضنكة ، قاسية قبل الثورة . وحتى بعد الثورة لم يكن ملتجعا في صفوف الناس البسطاء ، وعلى كل صعيد .

وقد وضع كتبا للاطفال ، وكان يحبهم حبا جما . وكان يفهم الحب على انه طريق للعافية الروحية والنفسية . ولذلك لم ينتكر للحب بعد الثورة . وكان يلح دائما على ان للشاعر قلبه ، وشخصيته ، وان الحياة ليست سياسة فحسب ، فكان يقول :

« وجسدك

سأحبه وأحسو عليه

كما يحنو جندي شوتهته الحرب

لانفع فيه ..

لا يمت لاحد

على ساقه الوحيدة الباقية »

لكنه في ذات الوقت كان يدعو الفلاحين - في شعر دعائي طبقي - ان يتفهوا لماذا ارتفعت اجور المواصلات ، ولم يكن في ذلك قد ضحى بنفسه ، وبرسالته كشاعر ، بل بالعكس اغناها ، متمم طريقه ،

في الرد على الأحمرة

- ١ -

العصافير على سور الحرم عشت .
وأبت أن ترحلا
والنقوش الحمر في صدر العلم
منذ أن كنت ربيعا مهملًا
علمتني : كيف تقبيل القمم ! .

شجر الحور بكى حين رأني
كنت قد ملمت أشيائي وأعددت الحقائق
وتركت الدار تنعي من بناها
ورأيت الحزن في وجه الخرائب
يلعب الديق عليها
ويصيح الشجر الملتف في الليل القليل
يسأل الاطلاع عن آثار جدي
تحتها كل شهادات الثبوت
نقشوها

في صخور غمرتها الريح في صلب الترائب

وتقولون بأن الرمز في وادٍ بعيد
وأنا أحفر حتى
يولد النقش وجدني من جديد

- ٢ -

ليتني عودُ ذره

في مروج الذهب الأحمر أنمو
وأغني أغنيات هازئات للشعالب
ليتني قصرٌ قديم من قصور الخلفاء
عشت في العناكب

ورثته الشعراء .

ليتني كنت نقوشا
في قرى « دورا » وفي « تربة لوط »
أو جدارا فارغ الطول يصلي للسقوط
ليتني بئر سبيل
ليتني حارس أعناب مع الصيف أغني
قرب أحراش « الخليل »
ليتني كنت بحيره
من بحيرات « الجليل »
ليتني - يا شاعري - عصفور حب ،
مغمض الجفنين حالم
فوق جدران الكنيسة
ليتني صفصافة مائلة النهدين
عند المسجد الأقصى أنادي الفقراء
يستظلون بظلي
يشعلون النار في وجه السماء ليتني ...

- ٣ -

عند باب القدس ماتت جدتي
وهي تحكي لشجيرات العنب
عن زمان سوف يأتي
وعلى خديه شامات الغضب .
بعدها ذات صباح ستمرون على
كل قبور الراحلين
تقطفون الزنبق البري والنعمان مصبوغ الشفاه
وتصلون صلاة الأنبياء
وتغنون أغاني الشهداء
وأناشيد وشعرا لم تقله الشعراء . *

القاهرة ٤. عز الدين المناصرة

* هذه القصيدة عبارة عن مقطع من قصيدة طويلة بعنوان
« الخروج من البحر الميت » .

هذا هو الشعر

الى فيثاراتكم

أيها الاصدقاء الشعراء !

ولكن أفهموا أخيرا

اني ذو وجه واحد

وأن هذا وجه

لا دوارة هواء ! »

ان غنائية الذات والموضوع ، ووجدتهما عند ماياكوفسكي ، بشكل
عضوي خلاق ، وموهبته الخارقة التي كان يفديها بكل حي وكل
جديد .. كل هذا هو الذي جعل لطريقه ان يكون صوتا انسانيا
عريضا ، وهو الذي دفع الناقد السوفييتي لونا جارسكي ان يقول :
« ماياكوفسكي شاعر المستقبل الذي نشيده الان وفي سبيله
نناضل .. في كل مرة تسوقني الصدفة الى فتح كتاب من كتبه ،
أحس الحياة تنطق وتغمرني بأواجها الزاخرة » .
أجل ، لقد كان لونا جارسكي على حق ، فيما قاله عن ماياكوفسكي ،
فقد كان هذا صوتا عريضا لا حيا للانسان والحياة ، ومثالا يمكن
ان يحتذى ، في اكثر من موضوع ومناسبة .

جليل كمال الدين

موسكو

ومدركا اين يكمن الجوهر ، في الطرف المعين ، وفي اللحظة المعينة
مثلا (قصائده : « الاصلاح وسائل النقل » و « المواصلات افسدها التدخل
الاجنبي » ، و « لا بد من رفع أجور المواصلات » الخ ..)
كان ما ياكوفسكي صوتا عريضا للانسان ، ولذلك كان عليه ان
ينقل رسالة ، ورسالة الفنان الانسان . وقد حاول ماياكوفسكي ذلك ،
دون ان تسكره حمرة النصر بعد الثورة . فمع انه بدأ مستقبليته بنسب
الماضي الى ان عاد ناضجا في عام ١٩٢٧ ، يقول :

« كلا ، ليست الثورة انقطاعا عن التقاليد ، فالثورة لم تلغ
شيئا من انتصاراتها » .

كان اذن قد فهم بعض سر الحياة ، وهو ارتباط وتفاعل الماضي
والحاضر والمستقبل ، وانطلاق كل ذلك في خدمة الانسان ، ولاجل الانسان .
ولاجل هذا الانسان ذاته ، ولاجل الفنان الانسان ، جنديا لقضية
الثورة وقضية الاشتراكية وقضية الانسان عامة ، كان يقول ماياكوفسكي :

« متى سيفهمون

ان الشعر عمل ، هو أيضا

انه بحاجة الى مكان

والى زمان !

« تطلعوا الى المعركة ! »